

وقد وُلد حافظ قبل احتلال الإنجليز لمصر بنحو عشر سنوات واجتمعت له أسباب مختلفة. ليكون صوت مصر الناطق عن محنتها في هذا الاحتلال، إذ نبت في أسرة مصرية متواضعة من أسر الشعب، ولم يكد يخطو على عتبة سنته الرابعة حتى توفي أبوه، فكفله خاله، وكان موظفا بسيطا محدود الدخل، فألحقه بكتاب في القاهرة وبيع بعض المدارس، ونُقل إلى طنطا فصحبه معه وأخذ يختلف بها إلى الجامع الأحمدي مختلطا بطلابه. واستيقظت فيه موهبته الأدبية، واشتعل في دخائله إحساسه ببؤسه وضيق عيشه، وعمل في مكاتب بعض المحامين، وهذا الإحساس لا يزايله، مما جعله يشدو بأشعار يندب فيها سوء حظه. ويكب حينئذ على قراءة الشعراء العباسيين من أمثال البحري والمنتبي وأبي العلاء، كما يكب على قراءة أشعار البارودي، وبلغ من إعجابه به أن صمم على أن يسلك الطريق الذي سلكه في مطالع حياته، فترك طنطا ومكاتب المحامين بها، والتحق بمدرسة الحرب، وتخرج فيها ضابطا سنة ١٨٩١ وعُين بوزارة الحربية، ونقل إلى وزارة الداخلية غير أنه عاد سريعا إلى الحربية، وأمضى بها بضع سنوات، وهو في أثناء ذلك يخالط الأدباء في القاهرة. ويدعى إلى مرافقة حملة كتشنر الأخيرة إلى السودان ويشتد ضيقه به، وتنشب ضده ثورة في الحملة سنة ١٨٩٩ ويشترك فيها حافظ، ويحال إلى الاستيداع، ويطلب إحالته إلى المعاش ويجاب إلى طلبه بعد نحو ثلاث سنوات.

لقد عاد حافظ إلى وطنه بعد خمود ثورته وثورته رفاقه في حملة السودان، ولكن الثورة على الإنجليز وبطشهم وبغيهم لم تخمد في نفسه أبدا، بل ظلت مشتعلة، وظل يذكيها بوقود من أشعاره حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وكان من أول ما رمى به الإنجليز بآئيته التي نظمها عقب عودته من السودان، والتي يصور فيها تعثر جدّه وحظه لنسبته إلى الشرق والعرب وإنه ليندب مجدهم وسطوتهم حين كان يخشي الغرب بأسهم، ويلتفت إلى مصر ومحنتها بالإنجليز الغاشمين، ويأسي لأحرارها فهم إن نطقوا بكلمة ألقى بهم في غياهب السجون ظلما وعدوانا، ويصرخ: